أنثروبولوجية المغرب :
بيرك / بورديو / جالنر و جارتز نموذجا

مختار مروفل

هل يمكن الحديث على مفهوم القبيلة ضمن النطاق المغاربي بوسائل العلوم الاجتماعية، مستفيدين بذلك من التجارب البحثية لكل من: بيرك J.BERQUE، وبورديو P.BOURDIEU، وجالنر A.GELLNER. وجارتزC.GEERTZ ؟

إن الاعتماد على المدخل الانثروبولوجي في فهم وفي تفسير المورفولوجية الاجتماعية المرتبطة بالنطاق المغاربي، تستوجب بالأساس التعرض لأبحاث هؤلاء المختصين الأربعة. إن أعمالهم المكرسة للمجتمعات المغاربية سواء كانت ذات فائدة لخاصة المغرب أو لتبين على أنه كيان مغاير عن أوروبا، فلقد أماطت اللثام على المغرب الكبير وحولته إلى مرجع في الدراسات الأنتروبولوجية بالجامعات ومراكز البحث بالغرب ككل. من هنا نتساءل:

- كيف تتدخل القبيلة عند بارك بشمال إفريقيا في تشكيل النسوج العمرانية الراهنة؟

- كيف يحلل بورديو المجتمع القبائلي التقليدي الجزائري في مقارنته على المستوي الإنساني والمساواتي مع المجتمعات الحديثة؟

- كيف يختلف جارتز مع جلنر منهجيا على أرض المغرب في تحديد البنا القبلية والثقافية التي تنتظم خارج سياج السلطة المركزية؟

قراءتنا تود أن تكون ابستيمولوجية المشرب، تستعرض المفاهيم و المقولات الموظفة من خلال هؤلاء الرواد. وذلك قصد الوقوف على المعرفة الأنثروبولوجية المتعلقة بالتشكيلات الاجتماعية القبلية الخاصة بالمغرب الكبير.

1) بيرك و المغرب السيرة و المسيرة :

إن تتبع السيرة الذاتية لجاك بيرك 1995/1910، يجعلنا ندرك أهمية الرجل الذاتية والموضوعية والإضافة التي أسداها لمعرفة المدن والإسلام المغاربي خاصة، وعلم الاجتماع و الأنتربولوجية الحضرية عامة. فبيرك ابن فرندة (الجزائر) الذي أوكله أبوه في طفولته لأحد شيوخ القبائل بالجنوب، لمدة ستة أشهر ليغرف من حياة البداوة، والذي قضى في ما بعد أزيد من عشرين سنة في المغرب مسؤولا على شؤون الأهالي ليكون في اتصال يومي بأهل الأرياف، أكسبه ذلك تجربة و خبرة ميدانية واسع [1] فعن علاقته باللهجات الدارجة بالمنطقة يقول بارك عن نفسه" تعلمت اللغة المغاربية مثلما لغتي الأم، وإن كنت في البداية أقل تحكما فيها من نظرائي المغاربة. لكن اليوم أستطيع أن أجزم أنني أتحكم في كل اللهجات و الكل يفهمني عندما أتحدث معهم". ويقول عن اللغة العربية"إنها لغتي الثانية [2] .

حضور الريف المغربي ولمغاربي بشكل عام في حياة بارك باد في كتاباته و أبحاثه، فمنذ الثلاثينيات بدأ بارك يسبر أغوار المغرب مقدما الريف على الحواضر، حيث استهل أعماله بفحص العقود الرعوية عند بني مسكين سنة 1936 ثم أصدر فيما بعد دراسات عن تاريخ الريف المغربي سنة 1938. إتجهت إهتمامات بارك فيما بعد إلى الحواضر لكن مدخله هذه المرة لم يكن العمران بحد ذاته إنما كان الفقه حيث درس" نوازل المزارعة لميار الوزاني" سنة 1940 وأصدر فيما بعد سنة 1944 دراسته المسمات" محاولات في منهاج الفقه المغاربي".

إن اهتمام بيرك بالفقه في الأربعينيات وليس بالحواضر مباشرة يرجع إلى أهمية المدونة الفقهية في ترتيب الانتقال من البدو إلى الحضر، فهي الشرط الضامن للاستمرار" التمسك بالاسلام" عندما تتم هذه العملية. لذالك اختص بالفقه العلماء بالمدن بينما بقي العرف من نصيب الأرياف والبوادي. ضمن هذا المنضور يمكن ترتيب أعمال بارك على النحو التالي (الريف / الفقه / العمران).

على مستوي الحواضر بدأ اهتمام بيرك أولا بمدينة فاس حيث كتب سلسلة من المقالات إفتتحها بملاحضات حول جامع القروين عنونها باسم" دور الجامعة الإسلامية بالمغرب الجديد" [3]. في 1938 وإختتمها بعد مرور ثلاثون سنة بمقال أسماه" فاس أو مصير مدينة" [4] ، وفي سنة 1949 كتب" المدينة والجامعة. نظرة حول تاريخ مدرسة فاس" [5] ،ثم أطروحته حول البنى الاجتماعية لسكان الأطلس الأعلى [6]. إن اهتمام بيرك بالحواضر المدن تزايد في الحقيقة مع نهاية الخمسينيات، أين كانت هذه الفضاءات مجالا مفضلا للحرب مع المستعمر ومع بناء الهوية الوطنية، حيث كتب [7] ثم" Médinas ville neuves et bidonvilles "، موظفا بذالك المنهج السوسيوأنتروبولوجي الحضري الذي

أعطى مكانة مميزة لنموذج العتيق l'archétype الذي تمثله مدينة فاس حيث نظر لها بارك في عدة مقالات ودراسات منها " Genèse d'une métropole musulmane " وفي كتابه Maghreb histoire et société سنة 1974[8] أو حتى كتابه le Maghreb entre deux guerres سنة 1962[9]، الذي يفيض بالوصف وبالتحليلات الحضرية و أنماط الحياة المدنية وتأثيرها على الأخلاق وعلى السياسة.

إن إسهامات بارك على العموم تعد جد هامة بالنسبة للنظرية الحضرية وللتحقيق الاثنوغرافي. حيث يمكننا تلخيص النظرية الباركية ضمن ثلاثية (المدينة العتيقة / المدينة الجديدة / بيوت الصفيح)، (Médinas / Villeneuve et bidonvilles)

1- 1 مورفولوجية المدن و المدن العتيقة المغاربية:

كل اهتمام بيرك فيما يتعلق بالجانب العمراني بالمغرب يبدأ بالتساؤل الذي يبحث فيه عن الحدود الفاصلة التي تميز المدينة الريفية الصغيرة La bourg عن المدينة الكبيرة La ville. فإلى أين تنتهي الأولى ومن أين تبدأ الثانية ؟

بالنسبة لبيرك لا يمكن التعويل على المتغير الديمغرافي وحده في تحديد مسمى المدينة بالمعنى الحديث، فملاحظاته المباشرة على مستوى النطاق المغاربي جعلته يفرق بين نمطين مورفولوجين يختلفان من حيث الشكل والمضمون، فيعرف النموذج التقليدي من السكن على أنه "تجمعا اجتماعيا بدائيا ذو شكل ريفي مركزه السوق يتقاطر عليه أهل القبيلة واقتصادياته تعتمد على الزراعة الرعوية وفيه يعاد تشكل العصبيات بصفة غير مكتملة". هذا الصنف من التجمع السكني لا يمكن أن يطلق عليه إسم مدينة حتى ولو اشتملت ساكنته على 4000 شخص. فما المدينة إذن ؟

المدينة في نظر بيرك هي من إنتاج العالم الحديث ولدت من خلال حراك مجالي الذي تحول إلى قيمة تبادلية ومكان للمضاربة وبالتالي فهي تعتمد على أنماط تبادلية معقدة متعددة ومتنوعة. كيف ارتسم الشكلين المورفولوجين على أرض المغرب ؟

يري بارك أن المدينة العتيقة تستلهم مرجعيتها وامتدادها من القرنين 14 و 15 أين كانت تسود سلطة الأولياء الصالحين L'hagiologie، هي اليوم على المستوى الهندسي مصممة حول محاور منارات المساجد و على أطواق الأسوار و نفوذ الأولياء وسلطتهم في تنظيم الحياة الاجتماعية الممتدة من عهد " المرابطين" بالمغرب. على أرض هذا النسيج العمراني يتقاطع فيه الوافدون من الخارج "les venus d'ailleurs" "بالوافدين من الأعلى" "les venus d'en hauts"، بحيث يرتبط الصنف الأول بالمدن الجديدة كمدينة الدار البيضاء التي تعتبر من نتاج تدخل الأوروبي المرتبط بالتحولات الحاصلة على مستوي الملاحة، أما الصنف الثاني فهو ينتمي إلى العواصم الإسلامية كمدينة فاس العتيقة السابحة في عمقها الثقافي والإيماني. أين تكمن صعوبة الالتقاء بين النموذجين ؟

يري بيرك أن المدن التاريخية تعاني اليوم من الاندماج و ذلك بسبب ما يسميه أولا تشبث ابنائها بالبعد الرمزي و العلاماتي " l'urbanisme du signe "، يكون المسجد فيها شاهدا (علامة) ومنطلقا لكل عملية مد وجزر اجتماعي.

1- 2 استمرار ألوان القرابة و العائلة التي تشكل جزء هام من جسم المدينة العتيقة.

1- 3 حضور البعد الجدودي (من الأجداد) الذي يفرض تعليماته الصارمة في مجال البناء و امتلاك العقار، ضف إلى ذلك أن صفة التمدن la citadinité ضمن هذا السياق تلك التي تستند إلي إحدى الخواص الاجتماعية المنمذجة للمدينة العتيقة المتمثلة في للانتماء إما لفئة الحرفين أو فئة التجار أو المنتسبين للعلم الشرعي. هذه المواصفات تجعل المدينة وهي تتجه نحو المتقبل في علاقة إكتضاض وتزاحم مع المدينة الجديدة ذات الطابع الرأسمالي القائم علي البورصة والصناعة التكنولوجية وعلي العمران الحديث بالإضافة إلي تداخل بنايات الصفيح والمجمعات العشوائية. فمن بين إذن المدينة العتيقة والمدينة الجديدة la Villeneuve ذات طابع الرأسمالي القائم على نظام البورصة وصناعة التكنولوجية، والعمران الحديث بالإضافة إلى تداخل بناءات الصفيح والمجمعات العفوية فمن بين إذن المدينة العتيقة والمدينة الجديدة و بيوت الصفيح انبثقت الحشود بالمدن المغاربية. إن البلدية في هذا الإطار هي غطاء يحتدم في كنفه بشكل غير مكتمل القرابات العصبوية الممتدة حيث استوطنتها السلالات فالدولة فيها إما عتيقة أو استعمارية أو وطنية ألصقت بالنهاية بأحد النموذجين المورفولوجين المذكورين. هنا يكمن اليوم تحدي المدن بالمجتمع وتاريخ المغرب.

2) جلنر ومفهوم الانقسامية :

في دراسته لخصائص القبائل الأمازيغية بالأطلس يري جلنر أن هذه التجمعات البشرية لا يمكن لمشهدها أن يستوي إلا علي ما يسميه" فوضي الانقسامية "حيث ينسجم حراكها بطبيعة النظام الأيكولوجي الوعر الذي تتواجد عليه. إن

الانقسامية ضمن هذا السياق ليس انكفاء مجموعات سلالية أو عرقية علي نفسها بل هو عبارة عن مجموعة تشابكية " UN EMBOITEMENT" متعددة الانتماءات تتراكب وفق نظام مساواتي وتوازني يعتمد مبدأ التدامج والتصدع «fission fusion». للأجل الاستمرار في الاندماج داخل النظام الاجتماعي.

إن نسق "تعارضات المتكاملة" بهذا الصدد فيما بين الأقسام والذي تلعب فيه المسألة الجينيالوجية دورا بارزا علي مستوي الاستقطاب، تعمل علي تكوين تحالفات في ما بين الأجزاء المتقاربة ضد الأجزاء البعيدة. الشيء الذي يقطع الطريق أمام إمكانية حدوث استقرار ومن ثمة ظهور سلطة مركزية تعمل علي استتبابه. إن هذا العنصر بالذات يشكل الدعامة الأساسية لنموذج جلنر الذي يرفض من جهة مقولة " مجتمعات بدون دولة " لدي قبائل الأطلس- مثلما تقرر ذلك التقاليد الأنتربولوجية البريطانية – وذلك بحجة أنها محكومة بالعرق و بالقبيلة. لكن من جهة أخرى يؤكد على وجود علاقة متراكبة بين كيانين متنافرين متمثلين في الدولة /القبيلة لكنهما متداخلين بالواقع والحقيقة فعلى طريقة ابن خلدون يرى جلنر أن القبيلة هي عنصر ضعف وقوة في أن واحد.فتمرد القبائل يؤدي إلى تفكك الدولة مثلما أن التلاحم العصبي يأدي الى تقوية السلطة السياسية. انها الفوضى المنظمة مثلما يسميها جلنر " l'anarchie ordonnée"التي تنتج السلطة لدى القبائل "وتقوم هذه الأخيرة باهدائها إلى المدينة" إن الأشكال المتداخلة إلى جانب الأشكال الوسيطية الناتجة عن اعتبارات أيكولوجية وأخرى سوسيوسياسية تبلور اليوم تاريخ المجتمعات المسلمة بالأطلس المغربي. لكن ماذا عن الأشكال الوسيطة

2- 1 الولاية وأدوارها :

في دراسته لزاوية احنصال بالأطلس المغربي يرى جلنر أن النسق القبلي دون رأس "acéphale" لا يعتمد في سيره فقط على مسار "التدامج و التصدع" للمجموعات العرقية ذات التعارضات المتوازية بل له ميكانزمات، إضافية أخرى تعمل على تخفيف حدة" فوضى الأجزاء". فالزاوية المتواجدة على أرض القبائل و الأولياء المتجدرون في صفوف السلالات الدينية يجسدون المقدس ويتوسطون العلاقة في مابين الناس و الله إضافة، على ذلك يحملون على كاهلهم أدوارا و مهام سياسية يجسدونها داخل القبائل.

إن عبادة الأولياء بأرض الأطلس تعبر في مضمونها الاجتماعي عن الحاجة الروحية وعن الالحاحات الظيفية التي تتعلق بالنظام السياسي الجزئي.

إن جلنر في تحليله لهذه المسألة وفي الكيفية التي يثبت فيها نظام الأولياء مكانته ضمن نظام القبائل الخارجة عن السلطة المركزية، لاحظ أن الحياة القروية عادة ما تفضل تدينا مخالفا لتدين الموجود بالمدينة. فاتصاف أهالي الريف بالأمية التي تمنع من الرجوع الى الكتاب المقدس، تدفع بهم إلى الرجوع للطقوس والى تدين "مشخصن". لذلك فهم في حاجة الى شخص ديني ليس فقط في الدور الوسيط الذي يقوم به في تقريبهم من الله وحسب بل أيضا في الوساطة الضرورية التي يقوم بها في مابين المجموعات الاجتماعية. إن التدين القروي -لاحظ جلنر- متصف بالإكثار من الصور الملموسة للمقدس والممارسات الطقوسية وكذا التراتبيات والوساطات.

أما على المستوى السياسي فان القبيلة في حاجة دائمة الى الأولياء تثبت فيها سلطتهم و نفوذهم في بيئة قبلية جد فوضوية لكن كيف يمكن للشخص أن يصبح وليا؟حتى يصبح الرجل وليا عليه أن ينتسب إلى النسب الشريف و أن ينفذ بعض الأدوار تجاه نفسه وتجاه غيره من الناس.فالولاية تحتاج إلى مؤهلات خاصة حتى يصبح الشخص موكلا بالتوسل إلى الله لمن هم في حمايته.فصفة السخاء والضيافة والمسالمة (لايحل سلاح ولايشارك في ثأر [10]) فكل هذه الأدوار ضرورية في اكتساب هذه المكانة.إضافة إلى ذلك على الولي أن يقدم مجموعة من الخدمات من أجل تثبيت وظيفته الاجتماعية، كالتنبؤ في انتخاب رؤساء القبائل والتوسط بين المجموعات المتصارعة، حماية المسافرين واجراءات المباهلة (القسم الجماعي) ومنح الدعاء والبركة هذه بعض المميزات من لائحة طويلة يقدمها جلنر. عن الولي والأدوار المناطة به داخل مجتمع التجزئة المؤسس على التعارض المتوازن لوحداته والذي يلعب الأولياء فيها دورا متأصلاغير منتظم.إن أهمية أطروحة جلنر تكمن في كونها طرحت العلاقة التي تربط الأولياء بالقبائل بشكل ايجابي، يتداخل فيه الديني بالسياسي بالنمط الاقتصادي الزراعي الرعوي. هذا النموذج في نظر جلنر متعلق فقط بالاسلام المرابطي ذو الصفة المحلية الجزئية غير مؤهل للاندفاع نحو الوطنية ونحو الحداثة.لذلك فالاصلاح الديني القائم على القرائة و الكتابة، يطرح نفسه كبديل معاد للاسلام أولا للاسلام الريفي والشعبي الذي يصفه بالشعوذة والخرافة، ومبلورا ثانيا للوطنية المغاربية وحاملا لديناميكية الحداثة. جلنر بهذا المعنى لم يخرج عن المسلمات الفيبرية التي كان يحملها .حيث قارن بها الاسلام المرابطي بالكاثوليكية والاسلام الاصلاحي الكتابي

بالأرثودوكسية التي كانت في القرن 16 بأوروبا وراء ظهور الرأسمالية و الحداثة.

3- الأشياء والمعاني ذاتية جارتز في وجه موضوعية جلنر :

لا نكاد نقع على اتفاق ما يجمع خارتز وجلنر على مستوى الدراسات و الأبحاث المتعلقين بالمغرب، فجارتز منذ البداية يرى في جلنر مجرد مجدد للنظرية الدوركايمية ذات الصفة الموضوعاتية المجدة لنزعة العلمية التي تجرد الباحث من جميع خصوصياته الذاتية وتحوله إلى مجرد آلة تسجل وتكتب، تلغيه من سياق البحث ذاته.لذلك يصف مشروعه على أنه ذو طبيعة عضوية و جنيالوجية.

يرد جلنر على جارتز أن بحثه بالمغرب لم يخرج من حدود قرية صغيرة وأن تأثره بفيبر وبارسونز لا يخفى على أحد كما أن تصوره للمجتمع قائم على فهم سميولوجي للثقافة وأن مشروعه لا يعدو أن يكون ذو اتجاه تفسيري.

إن الرجلان لم يجمع بينهما سوا أرض المغرب الميدان المفضل عند كليهما للفحص الأنثروبولوجي. انه تصادم مثير لمنهجيتين مختلفتين في الشكل والمضمون. جلنر يسجل أهمية وأولوية البنا الاجتماعية على حساب الأفعال الاجتماعية والدلالات الممنوحة لها من طرف فاعليها، بينما جارتز يرى في البناءات الثقافية للواقع بالمغرب دورا حاسما في التأثير على الفعل الاجتماعي وهنا تعد وجهة نظر الأهالي جد مركزية من أجل من أجل المقاربة الفهمية.

نتوقف هنا مليا لتحدث بشيء من التفصيل على مرتكزات أنثروبولوجية جارتز التي تعتمد بالأساس على مسمى "الوصف المكثف" "la description dense ". فماذا يقصد جارتز بهذا المصطلح؟ الوصف المكثف عند جارتز هو عبارة عن برنامج متكامل يبحث في الكيفية التي ينتج من خلالها الناس بناءات المعنى و الدلالات التي يثبتونها هم أنفسهم عليها.ان الاثنوغرافي في الميدان -بحسب جارتز- لا يواجه أفعال اجتماعية موضوعية بقدر ما يواجه بنا متعددة وعقدة، فمن خلال" السواق" مثلا- أي رجل السوق – والثروة اللغوية التي تملأ المكان (تعدد المعاني والدلالات لبعض الكلمات كصدق. صح. حق). يمكن للقارئ أن يفهم ويستوعب المجتمع المغربي من خلال السوق.

إن جارتز يطل على المجتمع الغربي من خلال فعل اجتماعي واحد أو دلالة أو رمز، هذه المؤشرات بالنسبة إليه كقطرة ملتقطة من المحيط، بمعنى مأخوذة من نفس الجذع لايمكن بحال عزلها عن باقي الرموز والإشارات لنسيج الكلي والشامل للثقافة، التي يعرفها جارتز أنها "شبكة عنكبوتية البحث فيهالا يخضع للعلوم التجريبية الباحثة عن قوانين، إنما على علوم التفسير الباحثة على المعاني[11]".

إن المنظور القارتزي بهذا المعنى والمنتسب لتيار ما بعد الحداثة، ينظر لكل شيء على أنه نص و أن المجتمعات مختزلة في معاني وأن المعنى هنا مطروح للتفكيك le décodage وأن أي اعتبار للواقع من منظورموضوعي هو محل شك، وأن التعميمات العلمية هي ذات نزعة موضوعية وأن النظرية هي حاجز أمام فهم الأخر ودلالاته أثناء دراسة المجتمعات.لذلك تركز أنثروبولوجية جارتز الاجتماعية على ردود أفعال الباحث تجاه ملاحظاته للمجتمع المدروس لديه.

أي بمعنى الاعتماد على ذاتية الباحث (المؤلف) وذاتية المبحوث (المحقق معه) في أن واحد. إن اعتبار العالم- من وجهة نظر جارتز- على أنه كل من المعاني وليس من الأشياء و أن الدلالات و الاشارا ت والرموز هي الكل في الكل، جعل من الأشياء تنزلق نحو المعاني والأدوات تتدحرج نحو المواضيع l'objet vers le sujet وأن كل هذه المنظومة المجسمة للواقع تكمن في ممارسة التأويل، فتأويل هو المفتاح الذي تروج له نبوءات ما بعد الحداثة.

4- جدلية الطبيعة و الثقافة عند بيار بورديو :

في المجتمع القبائلي الكل يستند على الطبيعة في تصنيف وترتيب وتوزيع المكانات الاجتماعية لذلك فهي- أي الطبيعة- محل تثقيف و تنشئة حتى تأخذ وجها إنسانيا. إن توسط الطبيعة لمختلف العلاقات الاجتماعية وحضورها الملح على جميع الصعد، يجعل منها مرجعا ثابتا في ما يتعلق بفكرة المساوات التي يعود الأصل فيها إلى- مثلما أسلفنا- الى الطبيعة وليس إلى المجتمع أن ترتيب الناس على قاعدة امرأة/ رجل.شاب / شيخ. خالص /غير خالص. مقدس / دنيوي هو تصنيف يخضع لتراتبية طبيعية محضة.

لكن كيف يتجسد ذلك في القرى والمداشر القبائلية؟

يهتم بورديو هنا بمسألة الرموز و الوظيفة التي تلعبها في التواصل في ما بين المجموعة الاجتماعية و بين الطبيعة، بتعبير أخر بين خصوبة الأرض المغذية والمرأة وبين النشاط الزراعي للفلاح و بين الزواج، إذ أن صورة الرجل المؤسس للمرأة بالقبائل هي تتوازى مع صورة الفلاح الذي يزرع ويحرث للأرض، الأرض التي تنتمي إلى الطبيعة الوحشية والتي ينبغي دائما تطويعها وتحويلها إلى أليفة، هكذا هي إذن صورة المجتمع القبائلي في التحليل الاثنوغرافي لدى بورديو. المرأة فيه ينبغي أن تخضع لذات

العملية من الترويض حتى تصبح ممتثلة و طائعة، لأن الأصل فيها مثلما الطبيعة هو التمرد والعصيان.

فهي كالأرض محل خطر لكونها تحمل مصير الرجل ويمكنها أن تهدم رأسماله الرمزي

وذلك بتلطيخ سمعته. إن المجتمع القبائلي درج على تقسيم جنسي طبيعي للوظائف في الحياة اليومية.

إن عالم المرأة هو المنزل "الداخل" وهي بمثابة الظل/ الرطوبة بالبيت لذلك فالثقافة المواتية بهذا المجال هي ثقافة السحر والحساب التي تختص بها المرأة، بينما عالم الذكورة "الخارج" هو عالم العلن والمجال العمومي، يستوجب ثقافة عقلانية صريحة تقوم على مبدأ الحق.

إن الرأسمال الاجتماعي بمنطقة القبائل يتشكل من خلال هذه الازدواجية الطبيعية (الحقل الواجب خدمته والمرأة الواجب إخضاعها) التي تصبغ الحدود بالداخل الاجتماعي و الذي ضمن سياجه يتنافس الأفراد.

4- 1 مبدأ للامساواة في مفهوم الحداثة ومفهوم التقاليد:

يعطي بورديو أولوية خاصة للمقارنة في ما بين "الحداثة و"التقاليد". إن مشاريع بحثه تؤكد كيف أن المجتمع الحديث يشوه الانسان من حيث أنه يفرض عليه ويلزمه بحالة من للامساواة الغير الشرعية، يكون المجتمع هو السبب الأصلي فيها.

إن ميزة الفرد المغاربي في ما يرى بورديو هو في ما يملكه من رأسمال اقتصادي أو مدرسي أو ثقافي، لكن في ماذا يختلف هذا النموذج من وجهة نظر بورديو عن النموذج القبائلي؟

إن ندرة الملكيات المادية كالأراضي ووسائل الإنتاج بمنطقة المغرب بشكل عام يعد دافع أساسي للبحث عن معوض للرأسمال الاجتماعي، ذلك أن المجتمعات المغاربية يسيطر على مخيالها البعد الرمزي الذي يتلاحم كليا بالبعد الاجتماعي. هنا يصبح الشرف موضوعا للرأسمال الاجتماعي ينزل منزلة الرأسمال المادي الصعب مناله، فالشرف إذن بأرض القبائل جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي ككل و من ثمة فهو لا ينفك عن النظام الطبيعي الذي يشكل الخلفية الثقافية التي يتغذى منها الرأسمال الاجتماعي. لكن كيف يحدث ذلك؟

إن الطبيعة بمنطقة القبائل هي مرجعا أساسيا للضمير الجمعي فمنها يشرعن للنظام الرمزي المحلي.

إن الإنسان القبائلي يستنطق الطبيعة حتى تمنح النظام الاجتماعي دلالته ومعنا، أي أن حالة اللامساواة المفترضة بالمجتمع يتم إيعاز مبرراتها الأساسية الى الطبيعة، فالتنافس والتناحر لأجل تحقيق منافع مادية طبيعية- النادرة بحد ذاتها- شرطا أساسيا في بناء رأسمال اجتماعي لدى الأفراد، أي أينما يدور التنافس والصراع في ما بين الأفراد من أجل تحقيق المنافع والمصالح الطبيعية تدور معه قصة بناءا لرأسمال الاجتماعي، فدافعية التنافس -من وجهة نظر بورديو- الأساسية تسعى لتحقيق الشرف ومن ورائه الرأسمال الاجتماعي.

والشرف هنا يجد مضمونه ومادته ضمن رابطة العرق والدم الطبيعية.

ضمن هذا المنظور يمكن تصنيف بورديو من بين أكبر الباحثين الأنثروبولوجيون في القرن العشرين الذين ذهبوا إلى مناطق نائية ليكتشفوا حقيقة مجتمعاتهم الغربية، فإذا كان كلود لوفي ستروس ذهب الى الأمازون ليبرهن على كونية الإنسان الأوروبي، و ايفا ن سب ريتشارد انتقل إلى السودان والى ضفاف النيل ليؤكد على علو مكانة ومقام المؤسسات السياسية البريطانية بالمقارنة مع المجتمعات التي لا دولة لها فان بورديو سافر إلى القبائل ليرد على سارتر في قوله بأن الإنسان ليس حرا وأن الحداثة قمعته بشكل غير مسبوق.

الخلاصة :

إن القبيلة المغاربية تحت الفحص الأنثروبولوجي تبدو اليوم مترنحة بين الضرورة وبين الصعوبة. ضرورة، لأن النسوج الاجتماعية المغاربية بالرغم من التدخل الكولونيالي العنيف لم يفقدها توازنها كلية، فهي لازالت حاضرة على المستويات الأكثر حيوية كالمجال السياسي الذي ما تفتأ مواعيده الانتخابية يحركها اللاشعور القبلي والجهوي. وصعوبة ذلك أن التوجه نحو المستقبل ومؤثرات التحديث علي المستوى الحضري وعلي مستوى تقسيم العمل جعل من مفهوم" الجماعة" التقليدية تتداخل مع الأنماط الحديثة، وتترك تشويها وعدم اكتمال للنماذج الجديدة. إن الاستعانة في تحليل النسوج الاجتماعية والمعمارية بالمغرب بالاستناد على بيرك، جلنر، جارتز و بورديو يعد مهما في الاقتراب وفي فهم الطبيعة الاجتماعية المغاربية.

ومن ثمة التفكير في مشروع مجتمع لا يتجاهل البنية الأساسية من جهة ولا يفرط في متطلبات التحديث والتجديد.

مختار مروفل

جامعة معسكر

المراجع :

1 - *ARABIES. Entretiens avec Mairies Akar*, Paris, Stock, édit augmentée, 1980(1e édition, 1978), p35.

2 - Ben Salem L., « Jacques Berque (1910-1995) », *Cahiers de Tunisie*, n° 1653, trim.1993, pp. 12-13.

3-Berque J., « Le rôle d'une université Islamique », *Annales d'histoire économique et sociale*, n° 51, 31 mai 1938, pp. 193-207.

4 – Berque J., « Fès ou le destin d'une médina », *Cahiers internationaux de sociologie*, vol. 12, janv. - juin 1972, pp. 5-32.

5 - Berque J., « Ville et université. Aperçu sur l'histoire de l'école de Fès », *Revue historique de droit français et étranger*, Recueil Sirey, Paris, 1949, 64-114.

6 - Berque J., 1955, *Structures sociales du Haut-Atlas*, Paris, PUF.

7 - Berque J., « La cité éminente », *in Les villes* 1958, Paris, EPHEG.

8 - Berque J., 1974, *Maghreb, histoire et sociétés*, Alger, SNED.

9 - Berque J., 1962, *Le Maghreb entre deux guerres*, Alger, SNED.

10 – Gellner G., 1974, « Comment devenir marabout, *Bulletin économique et social du Maroc*, Rabat, 1976.

11 – Geertz C., « La description dense », *Enquête*, 6-1998, pp. 73-105.